

الوافي في الوفيات

قال شمس الدين الجزري : حدثني الأمير سيف الدين أبو بكر المحفّـد دار قال : كان السلطان وقال : في نفر ذلك له قلت فلما بالعساكر مـ يتقد بأن بيدرا إلى بكرة نفذني قد C السمع والطاعة كم يستعجلني ! .

ثم إنني حملت الزردخاه والثقل الذي لي وركبت فينا أنا ورفيقي صارم الدين الفخري وركن الدين أمير جاندار عند الغروب وإذا بنجـاب قد أقبل فقلنا له : أين تركت السلطان ؟ فقال : يطول أعماركم فيه . فبهتنا . وإذا بالعصائب قد لاحت وأقبل الأمراء وبيدرا في الدست فجئنا وسلمنا . وسأيره أمير جاندار وقال له : يا خوند هذا الذي تم كان بمشورة الأمراء ؟ قال : نعم أنا قتلته بمشورتهم وحضورهم وهاهم حضور . وكان من جملتهم حسام الدين لاجين وبهادر رأس نوبة وقراسنقر وبدر الدين بيسري . ثم إن بيدرا شرع يعدّ ذنوبه وإهماله لأموار المسلمين واستهتاره بالأمراء وتوزيعه لابن السـلعوس . ثم قال : رأيتم الأمير زين الدين كتبغا ؟ قلنا : لا فقال له أمير جاندار : كان عنده علم من هذه القضية ؟ قال : نعم هو أول من أشار بها . فلما كان من الغد جاء كتبغا في طلب نحو ألفين من الخاصـكية وغيرهم ثم قال كتبغا لبيدرا : أين السلطان ؟ ورماه بالنشـاب ورموا كلهم بالنشـاب وقتلوه وتفردّـق جمعه قال : فلما رأينا ذلك التجأنا إلى جبلٍ واختلطنا بالطلب الذي جاء فعرفنا بعض أصحابنا فقال لنا : شدوا بالعجلة مناديلكم في أرقابكم إلى تحت الإبط يعني شعارهم .

قال ابن المحفّـد دار : وسألت شهاب الدين ابن الأشـل : كيف كان قتل السلطان ؟ قال : جاء إليه بعد رحيل الدّهليز الخبر أن بترـّ ووجه طيرا كثيرا فقال لي : امش بنا حتى نسبق الخاصـكية . فركبنا وسرنا فرأينا طيرا كثيرا فرمى بالبندق وصرع كثيرا . ثم قال : أنا جيعان فهل معك شيء تطعمني ؟ فقلت : ما معي سوى فرـّ ووجه ورغيف في سولقي . فقال : هاته فناولته فأكله ثم قال : امسك فرسي حتى أبول . قال : فقلت : ما فيها حيلة أنت راكب حصان وأنا راكب حجر وما يتفان فقال : انزل أنت واركب خلفي وأركب أنا الحجر التي لك وهي تقف مع الحصان إذا كنت فوقه . فنزلت وناولته لجامها وركبت خلفه . ثم نزل هو وجعل يريق الماء ويولع بذكره ويمارحني . ثم ركب حصانه وأمسك الحجر لي حتى ركبت . وإذا بغيار عظيم فقال لي : سق واكشف الخبر . فسقت وإذا ببيدرا والأمراء فسألتهم عن سبب مجيئهم فلم يردوا عليّ وساقوا إلى السلطان وقتلوه . ثم إنه بعد يومين طلع والي ترـّ ووجه وغسلوه

وكفّنوه ووضعوه في تابوت وسيّروا من القاهرة الأمير سعد الدين كوجبا الناصري فأحضر التابوت . ودفن في تربة والدته وذلك سنة ثلاثٍ وتسعين وستٍ مائة وكان من أبناء الثلاثين أو أقلّ .

ذكر فتوحاته : عكا وصور وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبهسنى وجميع الساحل في أقرب مدة . وكان مدة ملكه ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام وكان كرمه زائداً وإطلاقاته عظيمة . وكانت واقعته تسمّى : وقعة الأيدي والأكتاف لأن جميع من وافق عليه قطّعت أيديهم أولاً وفيهم من سمّـر وفيهم من أحرق وفيهم من قتل . ولم يجدّـد في زمانه مظلمة ولا استجد ضمان مكس . وكان يحب الشّام وأهله . وحدث أنه كان بدمشق قبل ولاية الأشرف يؤخذ عند باب الجابية على كل حملٍ يحمل غلّةً خمسة دراهم مكساً فأول ولاية الأشرف وردت إلى دمشق محامحة بإسقاط ذلك المكس . وبين سطور المرسوم بذلك بخطه بقلم العلامة : ولتسقط عن رعايانا هذه الظلمة ويستجلب الدعاء لنا من الخاصّة والعامّة . من البسيط . وأزرق الصّـبـح يبدو قبل أبيضه ... وأول الغيث قطرٌ ثم ينسكب